[١٣٦ – عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: ما صلى رسول الله ﷺ صلاةً بعد أن أنزلت عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلا يقول فيها: (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي) وفي لفظٍ: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)].

هذا الحديث الذي روته أم المؤمنين – رضي الله عنها وأرضاها – فيه دليلٌ على فضل هذا الدعاء وسنيته في داخل الصلاة، فناسب أن يعتني المؤلف – رحمه الله – بإيراده في هذا الموضع.

وقولها – رضي الله عنها –: **[ما صلى رسول الله ﷺ صلاةً]** فيه دليلٌ على فضل أم المؤمنين وعلمها، حيث كانت تراقب رسول الله ﷺ مراقبةً دقيقةً حتى علمت ماذا كان يدعو وماذا كان يسأل، وهذا يدل على فضل أصحاب رسول الله ﷺ وحرصهم على ضبط السنة والعناية بها حتى أدوها إلى سلف الأمة من التابعين – رحمهم الله برحمته الواسعة – كاملةً غير منقوصةٍ.

قالت: **[بعد أن أنزلت عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾]** هذه السورة تسمى بـ"سورة النصر" وهي مدنيةٌ بإجماع العلماء – رحمهم الله –، ونزلت في آخر حياة النبي ﷺ ، ولما نزلت بكي العباس – رضي الله عنه وأرضاه – فقال: نُعيتَ – أي النبي ﷺ – إلى أمتك. أي: أنها تدل على دنو أجله وقرب موته ووفاته – صلوات الله وسلامه عليه –، وقد كان ذلك فما عاش – عليه الصلاة والسلام – بعدها إلا يسيرًا.

وهذه السورة اشتملت على أمر الله ﷻ لنبيه إذا فتح عليه وآتاه نعمته أن يكثر من ذكره وشكره بهذا النوع من الذكر: وهو التسبيح والاستغفار **[﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾]** قيل: "الفتح": فتح مكة، وقد يطلق الفتح على صلح الحديبية، كما كان الصحابة – رضوان الله عليهم – يسمون صلح الحديبية بفتح مكة؛ لما فيه من يسر الدعوة إلى الله ﷻ ، ودخول الناس في دين الله ﷻ من بعده عن قناعةٍ. وقوله سبحانه:

[﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾] نصر الله نبيه، ولما نصره لم يجعل النصر سهلاً ميسرًا من أول أمر

الإسلام وإنما ابتلاه فأوذي في ذات الله – جل جلاله –، وكسرت رباعيته، وشج وجهه، وسفه رأيه – صلوات الله وسلامه عليه –، وقيل له الساحر والصابئ والأفاك، وغير ذلك مما لا يليق به وهو منه براء – صلوات الله وسلامه عليه –، ومات وهو سيد الأولين والآخرين ﷺ . جاءه النصر من الله؛ لأنه أوذي في ذات الله ﷻ ، ومن حمل دين الله وحمل رسالة الله فأوذي فيها من الخلق وأوذي فيها من الناس، فإنه لن يموت حتى يقر الله عينه، فيعلي ذكره ويحسن عاقبته، قال عروة بن الزبير: والله ما قام عبد لله مقامًا يرضيه فأهين فيه إلا أقامه الله مقامًا أعز منه. فمن أوذي في ذات الله واضطهد في مرضاة الله، فآذاه الناس وسفهوه، فإن الله يعلي قدره ويرفع شأنه وشأوه. هذا موسى بن عمران – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – آذاه قومه حتى قالوا إنه آدر، وهذا مطعنٌ عظيمٌ، فابتلاه الله حتى انكشفت عورته والحجر يجري بثيابه، فيجري أمام قومه عاريًا، فبرأه الله مما قالوا، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ ما جاءت الوجاهة إلا بعد الثمن والتضحية والصبر في ذات الله – جل جلاله –، واحتساب الثواب عند رب الأرباب والثقة بالله – سبحانه –، فإن النبي ﷺ نال هذا النصر بفضل الله وحده لا شريك له ولكن بعد الابتلاء وبعد الشدة والمؤونة والضنك، حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر يوم الخندق وظن الصحابة بالله الظنونا ﴿ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ ﴾ واضطهد – عليه الصلاة والسلام – ففارق أرضه وقومه، وكان ما كان من قتاله – عليه الصلاة والسلام – حتى رأى الشدائد والمصاعب والمتاعب، فرأى عمه مجندلاً على الأرض شهيدًا في سبيل الله، قد بقرت بطنه – رضي الله عنه وأرضاه – ومثل به، فصبر واحتسب حتى جاء اليوم الذي دخل فيه مكة، خرج منها في ظلام الليل فأدخله الله إليها في وضح النهار، وخرج منها وما معه إلا صديق الأمة والدليل الخريت عبد الله بن أريقط، فعاد ومعه ثمانية آلافٍ مدججين بالسلاح، يأمر فيطاع أمره وينهى فيمتثل نهيه. من كان لله كان الله له، وإذا نصر الله عبده فنصر الله عظيمٌ، ولا يأتي النصر إلا بعد الابتلاء، ولا يأتي النصر إلا بعد الضيق والشدة والكرب والمؤونة، فتحمل ﷺ همومًا عظيمةً وأمورًا جسيمةً في ذات الله – جل جلاله – حتى أقر الله عينه، أقرها له في الدنيا وفي الآخرة وما مات إلا وهو ينادى – باسمه صلوات الله وسلامه عليه –، فشرح الله صدره وغفر ذنبه الذي أقض ظهره ورفع ذكره، فينادي المنادي في الخمس: أشهد أن محمدًا رسول الله، وجاء اليوم الذي دخل فيه مكة، دخلها – عليه الصلاة والسلام – من أعلاها، ولما دخلها تذكر عظيم نعمة الله عليه، وجليل فضله

وجميل منته لديه، فطأطأ رأسه تواضعًا لله – جل جلاله –. يوم النصر الذي أخبر الله عنه في هذه السورة ويوم الفتح جاء لرسول الله ﷺ فما تكبر ولا تجبر ولا تعالى على الناس، ولكن تواضع لله وانكسر، دخل على دابته – عليه الصلاة والسلام – وعلى رأسه المغفر مطأطئ الرأس، ولم ينفخ صدره ولم يتعالى كتعالي العظماء، وإنما نكس رأسه حتى كادت لحيته أن تمس قربوس سرجه – صلوات الله وسلامه عليه –؛ لأنه يعلم أنها نعمة الله وحده وأنه أمر الله وحده [﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾] فنسب الله النصر إليه ولا ينصر إلا الله، والله ينصر أولياءه فينصر الحق الذي حملوه، فبعد أن يرفض يقبل، فتصغي له الآذان وتطمئن به القلوب ويرتاح له الجنان فتحب الناس ذكر الله. كانت قريش تعادي الإسلام وتعادي النبي ﷺ ، فأصبحت تحس أن عزها بالإسلام، فكان نصرًا للدين ونصرًا لما كان عليه – صلوات الله وسلامه عليه – من المبادئ الكريمة والأمور العظيمة التي أوتي فيها الكمال في دين الله ﷻ ، ونصرٌ له – عليه الصلاة والسلام –؛ لرفعة مكانه وعلو شأنه ﷺ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ الله أكبر، بالأمس يعرضون عنه ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥﴾ فإذا بهم يأتون إليه – عليه الصلاة والسلام – ويحنون إلى الإسلام ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾ ليس أهل مكة فقط ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾ فجاءت العرب جميعها؛ لأنه كانت الجزيرة هي أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ ، فجاءت إليه مسلمةً تشهد شهادة الحق بعد أن كانت على خلاف ذلك؛ لأنه نصر الله ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ سبحان من يقلب القلوب والأبصار! فهو – سبحانه – يملك الأمر كله ولكن ما على المسلم إلا أن يوقن بنصره ويوقن بربه ويلتجئ إليه – سبحانه –، فإذا صدق مع الله صدق الله معه ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إذا رأيت ذلك، إذا قرت العين وابتهجت النفس وانشرح الصدر، بقي على المسلم أن يذكر الله – جل جلاله –. إذا رأيت النعمة وقرت عينك بالبهجة والسرور، خاصةً في أمور دينك – فضلاً عن أمور الدنيا وهي تبعٌ للدين –، فما عليك إلا أن تذكر الله – جل جلاله –، فأول ما يكون ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ سبح بحمد ربك، التسبيح: التنزيه، وقولك "سبحان الله" أي: أنزه الله – جل جلاله – من النقائص والعيوب ومن كل ما لا يليق

به، فهو – سبحانه – منزهٌ عن كل شيءٍ لا يليق به – تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا – ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾ فإن لم يسبحه العبد فقد سبحت السماوات وسبحت الأرض وسبحت الأشجار والأنهار والبحار ومن فيها، سبحت له – سبحانه –، والتسبيح قيل: إنه التوحيد، فالمسبح هو الموحد لله ﷻ ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾ والصحيح: أن التسبيح: قول "سبحان الله" وهي كلمةٌ عظيمةٌ من قالها مخلصًا من قلبه ملأ الله بها ميزانه من الحسنات، قال ﷺ: (الحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن – أو تملأ – ما بين السماء والأرض) من الحسنات العظيمة، ولا إله إلا الله، المحروم من حرم. لو قلت: سبحان الله ملأت كما بين السماء والأرض، فهل هي ثقيلة على اللسان؟ هل يثقل على الإنسان إذا جلس أن يقول: سبحان الله، سبحان الله؟ فهنيئًا لمن وفقه الله لهذه الكلمة العظيمة.

و"سبحان الله" من أسباب الرحمة، ولذلك قال الله عن يونس بن متى – وانظر فلن تجد أعرف بالله من أنبياءه صلوات الله وسلامه عليهم –، فإن الله لما قص قصص البلاء التي ابتلي بها أنبياؤه – عليهم الصلاة والسلام – قصها عبرةً وعظةً، فإن يونس بن متى – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – لما ذهب في الظلمات – غيبته الظلمات في بطن الحوت وفي بطن البحر – نادى فيها: ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فقدم التسبيح بعد توحيد الله – جل جلاله – ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فجعل التسبيح قبل المغفرة، وهذا يدل على فضل سبق التسبيح للمغفرة، ولذلك قال ﷺ: **[سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي]** فجعل طلب المغفرة بعد التسبيح، والله – تعالى – يقول: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ ﴾ فهذه سنةٌ عظيمةٌ، وقال – سبحانه وتعالى – في خاتمة السورة: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ وقد غفر الله لنبيه ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلما فتح عليه الفتح غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فأصبح – عليه الصلاة والسلام – مغفورًا بلا ذنبٍ ولا خطيئةٍ.

وفي قولها: **[يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده]** فيه دليلٌ على هذا النوع من التسبيح في الركوع والسجود **[سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي]** و**[سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي]**، فيجمع بين التسبيح وسؤال المغفرة، وظاهر الرواية في الصحيح: أنها تقال في الركوع، وهذا يشكل من جهة أن الركوع لا دعاء فيه، ولكن أجاب بعض العلماء بأنه لا تعارض بين عامٍّ وخاص، فهذا دعاءٌ مخصوصٌ، وقد جاء الدعاء تبعًا ولم يأت أساسًا، وفرقٌ بين أن يأتي أساسًا وبين أن يكون تبعًا، وقد يجوز في التبع ما لا يجوز في الأصل. وأما السجود: فلا إشكال في سؤال المغفرة والدعاء فيه، وأما بالنسبة للركوع، فالصحيح: أنه يقال هذا الدعاء، ويسأل العبد ربه هذه المسألة تأسيًا برسول الله ﷺ.